

للهبوط من أرجوحة بلا حبال

الكاتب



نسيم الخوري

د. نسيم الخوري

كيف هطل مصطلح «المنظومة» على اللبنانيين فشغل إعلامهم وألسنتهم وعقولهم، قبيل الانتخابات البرلمانية، وخلالها، وبعدها، بشكل رهيب؟

ظهرت في التنافر والخلافات والانهيارات السياسية والحزبية التي سبقت 17 أكتوبر/ تشرين الأول 2019 تاريخ «بريق» أو انطلاق الحراك، أو الثورة في لبنان التي خبت، ولربما أوصلت بضعة نواب إلى البرلمان. وبلغ التقاذف والاتهامات عنان السماء والأذان، العربية والعالمية، وهيئات الرقابة الدولية في فترة الانتخابات البرلمانية، لكنها تقوى وتشتد أكثر بكثير بعد تحوّل حكومة نجيب ميقاتي لتصرف الأعمال، وترقّب انتخاب رئيس مجلس النواب ومكتب المجلس، ثم تكليف رئيس جديد للحكومة وتأليف حكومة جديدة، وصولاً إلى انتخاب رئيس جديد للجمهورية التي لن يبقى على رأسها الجنرال ميشال عون دقيقة واحدة، حسبما رشح عن قصر بعبداء، أكثر من مرة. ومع ذلك، لا مبالغة أبداً في أننا عاجزون عن فهم وتكرار كلمة المنظومة اللبنانية التي اجتاحت لبنان، ولا تزال، وبها أُلصقت كلّ الصفات البذيئة والكريهة، مع تجهيل الفاعلين عن الهدر والفساد والخرائب والانحطاط الذي وقع فيه لبنان. ويعود التجهيل للخوف الدفين من ذكر القيمين على تلك المنظومة، بصيغة المفرد أو الجمع، الذين لطالما خلّفوا، ويخلّفون الرعب في قلوب المواطنين، إلى التبشير بالحروب الأهلية بعدما عصروا خيارات لبنان كبرتقالة في يد صبي جائع.

وللتوضيح:

قوامها مجموعة من العناصر والأفكار المتفاعلة المنظّمة بمعانيها *Système* * أولاً: «المنظومة» ترجمة لمصطلح وأغراضها تصبّ في الأهداف الإيجابية والمشارك، لا بالسلبات المتنافرة في خدمات الدولة والأحزاب والمسؤولين المعبر عنها في لبنان بكونها منظومات، فبدا المصطلح خارج المنطق.

لماذا؟

* ثانياً: لأنّ المنظومة تعود لجمهورية أفلاطون الفاضلة تحقيقاً لرشاء شعوبها. ولأنّ أندريه أمبير (1775-1836) الفيزيائي والرياضي ومخترع التلغراف الكهربائي أول من استعملها منسّقاً العلوم وإنجاحها في مقولات السلطة والحكومة. وبانت المنظومة في الـ 1948 ثمرة لقاء سبيرنطقي بين أستاذ الرياضيات «نوربير وينر»، و«ورين كيلوش»، عبر مجتمعات الحشرات والحيوانات ودراسة مجالات تواصلها لتطبيقها في الإلكترونيات التي أوصلتنا إذ امتزجت الآلة Automatisation □ «للإنسان الآلي المدار إلكترونياً اليوم. وأصبحت تعني المنظومة «الأتمتة بالإنسان والمادة بالفكر والطبيعي بالاصطناعي فصارت أجيال الكمبيوتر تملأ دنيانا.

* ثالثاً: المنظومات طبيعية كالمنظومة الشمسية لها قوانينها وعلاقاتها وعوالمها، وحيّة مثل المخلوقات، تتعاقد أعضاؤها للنمو والبقاء، وتتقدّم قفران النحل كمثال طبيعي للمنظومات، فتتقدّم الغريزة في العطاء كمثال. هناك منظومات مركّبة كالمؤسسات والدول، منفردة أو مجتمعة، لكنها شديدة التعقيد في عصر الانفتاح التواصلي الراهن. * رابعاً: يفترض «السيستم»، لانهاية الأنظمة والحالات والعلاقات والأهداف المشتركة التي تتغيّر بتغيّر عنصر واحد منها إذ يختل النظام العام.

وعندما اجتاحت المصطلح لبنان تقاذفوه بتلفظه الأجنبي «سيستم» تحقيقاً للتشاور والخلط الدارج بين العربي والمعرّب، فسقط بصفته كلمة أو عبارة أو لفظة يبريها اللسان والزمان وتصلقها التجارب قبل أن تصبح مفهوماً علمياً دقيقاً محدّداً، وأمثالاً وحكماً نسميها الكلمات الذهبية لكنها بدت قذائف في لبنان وتجاه الآخرين سالخة المصطلح مشوّهاً من رحمه.

* خامساً: ليس أجدر من اللغة في تحقيق «السيستم» حيث لانهاية المواقع والأنظمة والحالات عند الكلام والاتصال. وعندما يأخذ المستقلّ الحرّ موقع الفاعل يتمكن من إسقاط نفسه على الحاضر. في المقابل يبدو الفرد التابع مقيداً ربّما يكتشف قواعد اللعبة في المنظومة وقوانينها، فينمو ويؤثر ويتطور فيها ويستند إلى الجدليّة الضيقة الخالية من المنطق البناء أي يصبح بالكلام والانقياد ويعمل لكي يصبح ويصل.

لبنان الآن ساحة، بل مشرحة دمّرت العلوم السياسية والألسنة والعقول وخلطت المفاهيم بالمصطلحات بالصفات المرتجلة والمستوردة من دون إدراك لمعانيها ووظائفها لتطغى مشاهد الطائفيات المشحونة مجدداً بترسيخ المنظومات القذرة من دون أي تفكير أو تفكير سياسي واجتماعي. إنّه واقع تضجّ به المقاهي والساحات والشاشات، وهو نتاج مجموعات من المجموعات التي يكرها لبنان الغد. المنظومة ميادين خارج كلّ الضوابط، سياسية وطائفية ومذهبية، ولها جذورها تتغذى من الخارج وتحكّم في سلوك الأفراد والجماعات ومستقبلها، من دون التماس العلوم والمناهج التاريخية والاجتماعية والنفسية، والمقابلات والمقارنات والإحصاءات.

قصدت المقاربة المنهجية السريعة للمنظومات في لبنان التي تبنّاها الإعلام الذي هو منظومة يُساق إليها اللبنانيون ويتفاعلون معها ليجدوا أنفسهم وعائلاتهم في منظومات لا تحدّ، ولا تُعدّ، تظهر بمواقفهم وعصبياتهم وردود أفعالهم. لن أقنع قطّ معهم بأنّ لبنان فاصلة غير ظاهرة في المنظومات الدولية الدقيقة والمتناغمة، لأن كشف الأغذية عن المتغيرات الآتية عبر خلافاتهم ومستقبل وطنهم، تجعلنا قادة جدد للحوار والتواضع كي لا يصبح التخريف والتخويف والتخريف علماً، أي يصبح الوطن أرجوحة من دون حبال

drnassim@hotmail.com